بسم الله الرحمن الرحيم

٩٥ — سورة البينة

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهى مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَيّ بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) قال: وسمّانى لك، قال: نعم .فبكى. ورواه البخارىّ ومسلم[1] . وفى رواية الإمام أحمد[2] عن أبى حبّة البدرىّ قال : لما نزلت (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) قال جبريل : يا رسول الله! إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَيًّا . فقال النبىّ ﷺ لأُبَيٍّ : إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة . قال أُبَيّ : وقد ذُكِرْت ثَمّ يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكى أُبَيّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٨ ـ سورة لم يكن ، ١ ـ حدثنا محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ)

[٢] (رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً)

[٣] (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

« لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى جحدوا نبوة النبىّ صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ماتبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم «وَٱلْمُشْرِكِينَ» أى وثنىّ العرب «مُنفَكِّينَ» أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ماقلدوا فيه آباءهم ، لايعرفون من الحق شيئاً « حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ » أى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبىّ ﷺ . فمجيئه هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ماهم فيه أجل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » أى مستقيمة لاعوج فيها . واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذى لايميل إلى باطل[1] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٤٢].

حَكِيمٍ حَمِيدٍ) والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هى ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاه الله فى كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم. وقد ترك حكاية مالبّس فيه الملبّسون إلا أن يكونن ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلا إلى إنكار الحق. وإنما فضلوا عليه سواه . أو هى سور القرآن . فإن كل سورة من سوره ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ماعرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذى جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذى لايختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم فى معرفة سبيله حتى لاينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع فى كشفها إلى العارف بمعانى الكتب. ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لايضللهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تفدهم شيئاً فإنهم اختلفوا فى التأويل وتفرقوا فى المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً فى المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ)

[٥] (وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ)

«وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ » أى على ألسنة

أنبيائهم. فهكذا كان شأنهم فى النبىّ ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب فى بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق فى الجهالة وأسلس قياداً للهوى ، منهم؟! وقوله تعالى « وَمَآ أُمِرُوٓاْ » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شىء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَآءَ » أى متبعى إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سمى به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الناس كافة « وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع. لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة فى شىء ، البتة « وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » أى بصرفها فى مصارفها التى عينها الله تعالى « وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : إن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة أختها . وكان افتراقهم فى العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله فى صلاتهم ، وإن يَصِلُوا عباد الله بزكاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذى يرجع إليه فى الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويَحُلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكم الإخلاص فى الأنفس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول فى حالنا ؟ أفما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، فى افتراقنا فى الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبىّ ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ماجاء به . وإن (من) فى قوله (مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ) للتبعيض . وأن معنى (لم يكونوا منفكين) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال فى عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التى كانوا فيها ، حتى تأتيهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم ، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عنـــد ما جاءهم . ولم ينظروا فى دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركى العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر منته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا ، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب ، لم يكونوا راجعين عن كفرهم وجحودهم هذا ، حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم فى إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى (حتى) وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعّبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفاسته ، ولكونه أحسن ما فُسِّرَت به . وقاعدتنا التى انتهجناها فى هذا التفسير أن نؤثر فى معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناه (محاسن التأويل) هدانا الله إلى أقوم السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجحدوا نبوّته « مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر فى الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف

الأولى ـ دلت هذه الآية والتى قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب فى عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعنى من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب، فأهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل فى عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لا أصيل. ولذلك ينفرون من وصمة الشرك، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنيين.

الثانية ـ قال ابن جرير : العرب لا تهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شىء يذكر عن نافع بن أبى نعيم . فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها. وذهب بها إلى إلى قول الله [1] (مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها، فإن لتركهم الهمز فى ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك، وهو مفعل ، من (ألك) أو (لأك) ومن (يرى) و (ترى) و (نرى) ، وهو (تفعل) من رأيت. والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيل (بفيك البراء) يعنى به التراب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ)

[٨] (جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى من بذل النفس فى سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال فى أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص فى سائر ضروب المعاملات . لأن إذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملّكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة، قاله الإمام. «أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

ٱلْبَرِيَّةِ » أى أفضل الخليقة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التى شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جعله الله قوام الوجود الإنسانىّ ، وهَدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ماهُدوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام « جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ » أى بساتين إقامة ، لا ظعن فيها ، تجرى من تحت أشجارها وغرفها الأنهار « خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا » أى ماكثين على الدوام ، لايخرجون عنها ولايموتون فيها « رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ » أى بما أطاعوه فى الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه فى ذلك « وَرَضُوا۟ عَنْهُ » لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمربه فى الدنيا . فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله مالا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله فى كل حال . أفاده الإمام .

« ذَٰلِكَ » أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء « لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ » أى خاف الله فى الدنيا ، فى سره وعلانيته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه . فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية .

قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ولايزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هـذا لا يكفى فى نيل ماأعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء . وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياحُ العجب والخيلاء . وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء . بل ولمن دون الأمراء . خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء ـ كلا لاينالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحلّ قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفُه قلبه . والله أعلم .